منارات

manarat

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة الميدى للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

www.almadasupplements.com

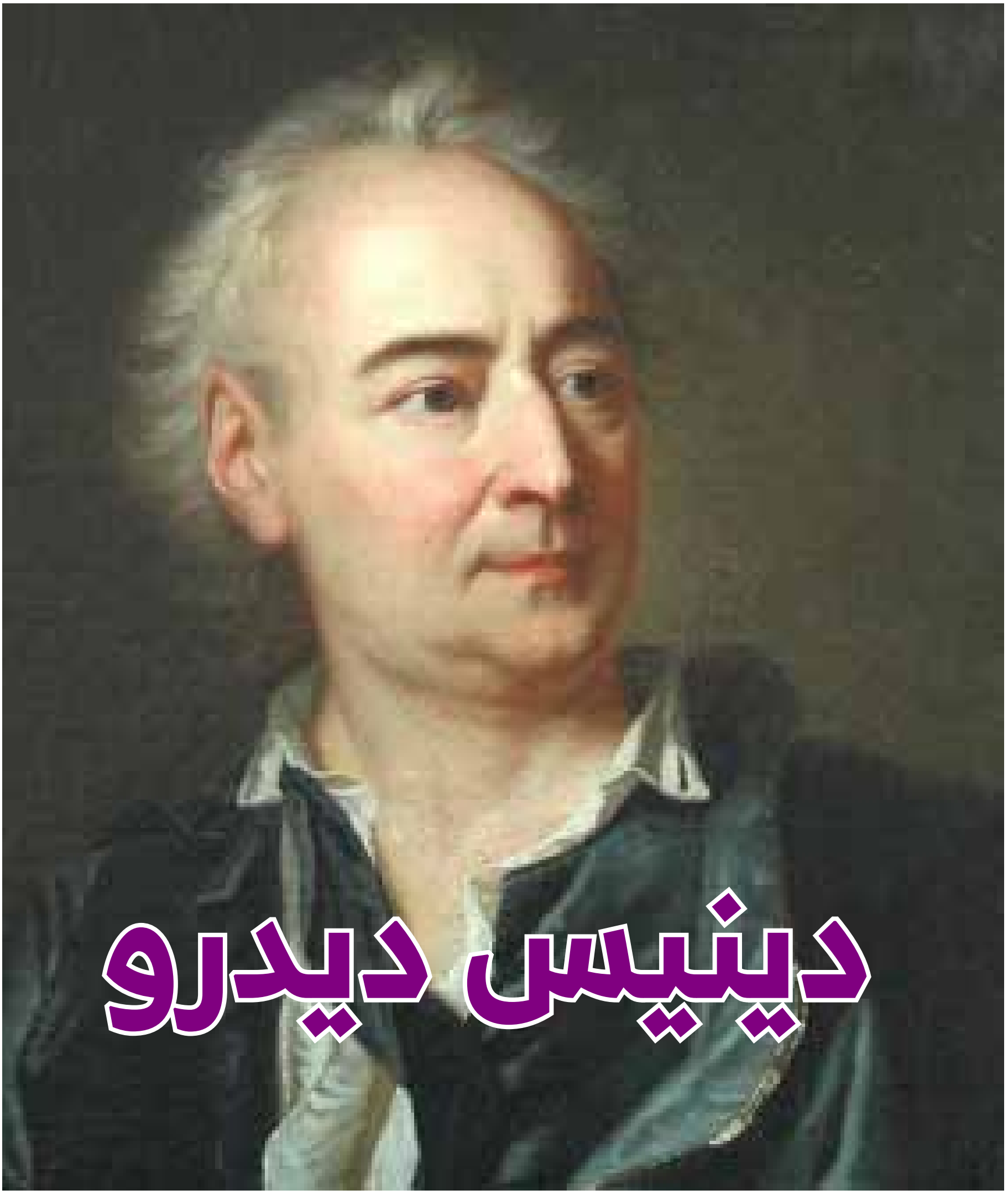

دينيس ديدرو

دينيس ديدرو ومدخل إلى فكر التنوير الفرنسي

محمد صلاح علي

يتمثل الفلاسفة الكتّاب الأكثر بروزًا في حركة التنوير الفرنسي في القرن الثامن عشر في فولتير وروسو وديدرو. يمتلك الاثنان الأوّلان شهرةً كبيرة نسبيًا في العالم الناطق بالإنجليزية، لكن ديدرو ليس كذلك. وللإنصاف، يجب القول إن إنتاجه نفسه يتم الاعتراض عليه في فرنسا نفسها. ففولتير وروسو تم إدخالهما إلى مقبرة العظماء (البانثيون) في أواخر القرن الثامن عشر، لكن انتظر ديدرو حتى عام 1913 كي ينال هذا الشرف، ورفضته الجمعية الوطنية بعد ذلك، ولم يحرز هذه المكانة حتى الآن.

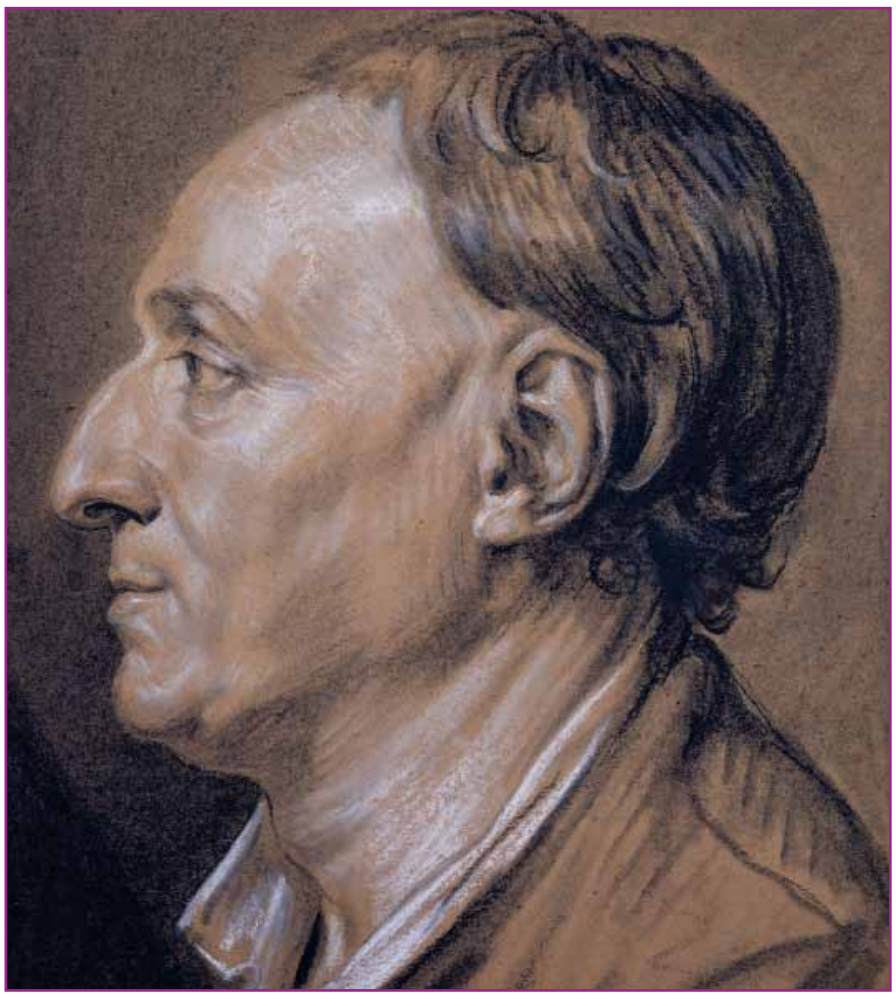

ولد دينيس ديدرو في لانجري في شامبان عام 1713. كان مُخططا له أن يخلف عمه في وظيفة المجد الكنسي، ولذلك تم جزّ شعره في الثالثة عشر من عمره. لكنه بعد إنهاء دراسته عَاش حياةً منحلة في باريس. وفي 1741 قابل خادمةً غسيل اسمها أنطوانيت شامبيون. رفض والده علاقتهما وحبسه في دير. هرب وتزوج أنطوانيت عام 1743. بعدها استقر في وضع مقبول، وأقام حياته على الترجمة من الإنجليزية. ومن الممكن أنه لم يكن زوجًا وفيًا للغاية، لكن يبدو أن علاقاته مع مدام دو بوزيوه وصوفي فولان كانت قائمة بالأساس على حاجته لمشاركة فكرية. فقد كتب في كتابه «ابن أخ رامو Le Neveu de Rameau» قائلا: «أفكاري هيَ عاهراتي».

كان ديدرو طوال حياته معروفًا باعتباره ناقدًا فنيًا بالأساس، وأحد محرري الموسوعة the Encyclopédie. وكان دوره بعد ذلك قلقًا من الناحية السياسية. فالموسوعة تم الترخيص لها، ثم حظرها، وإزالة الحظر عنها، ثم حظرها مرة أخرى في فرنسا، حتى استسلم المحررون وأعلنوا أن الإصدارات الأخيرة سيتم نشرها رسميًا في سويسرا. وعام 1766 تم وضع ناشر الموسوعة في سجن الباستيل.

واعتقل ديدرو لشهور قليلة (في فينسين وليس الباستيل). ويعد كتابه (1776) «مقابلة مع المارشال Entretien avec la Maréchale» كاشفًا في هذا السياق. وفيه يحاول ديدرو أن يقنع محاوره المتدين أن الملحد مثله يمكن أن يكون إنسانًا شريفًا (un honnête homme). لكن في الخاتمة ينقل:

المارشال: بالمناسبة، إذا اضطررت أن تشرح مبادئك لقاضينا، هل ستعترف؟ ديدرو: سأفعل ما بوسعي لأجنبهم فعل أمر سيئ. المارشال: جبان! وعند لحظة الموت، هل ستخضّع لطقوس الكنيسة. ديدرو: لم أكن لأقصر في ذلك. المارشال: عارٌ عليك! شرير مراوغ.

وفي 1765، باع ديدرو مكتبته للإمبراطورة الروسية كاترين مقابل مبلغ مالي، ومعاش دائم، بالإضافة إلى استخدامها طوال عمره. كانت هذه الصفقة هي التي قادته بعد ذلك إلى الرحلة الوحيدة له خارج فرنسا. فمن 1773 إلى 1774 غادر إلى هولندا أولًا، ثم إلى سانت بطرسبرغ ثم إلى هولندا مرة أخرى.

ويبدو أن ديدرو كان رجلًا لينًا. فقد تعاون مع روسو لخمسة عشر عامًا قبل أن يتشاجرا (كان روسو يتشاجر مع الجميع) ثم عاد ليعمل معه لعام آخر.

وبعد أن أصبح آمنًا ماليًا، عاشَ ديدرو آخر حياته في رفاهية مقبولة. وعمّر أكثر من روسو وفولتير، ومات ميتةً طبيعية عام 1784. وضمن مستقبل ابنته الوحيدة، ماري آنجليك، بتزويجها. وكان فاندال صهره هو الذي نشر أعمال ديدرو شبه الكاملة عام 1796.

مهنة الكتابة

لم ينشر ديدرو تقريبًا أيًا من كتاباته الفلسفية في حياته، على الرغم من أنه قرأها على أصدقائه وتداولها بشكل مخطوط فيما بينهم.

كان هناك العديد من الأسباب التي أدت إلى نشر أعماله بعد وفاته. أولًا، كانت الأفكار التي قدّمها خطيرة في ذاتها. فقد اقترب قدر إمكانه من إعلان مذهب مادي (وبالتبعية، ملحد)؛ وحتى فولتير على الرغم من معاداته لرجال الدين، فقد ادعى أنه ربوبي [محرر المجلة: الربوبية أي الاعتقاد بأن هناك إله، لكنه غير مهتم بشئون البشر]. وحتى وضع الرؤى الإلحادية على لسان متحدث خيالي كانت مجازفة بالوقوع في فخاخ سلطات الكنيسة والدولة. واكتفى ديدرو من ذلك في نهاية حياته. وأيضًا، قام بتقديم أفكاره في هيئة حوارية (أو كما كان يحب أن يسميها: محادثات entretiens)، وكان العديد منها يحتوي أشخاصًا معاصرين له. وبعض هذه الحوارات، كحوار Mystification، تبدو وكأنها عبارة عن محادثات حقيقية تم تعديلها. وأخيرًا، كان ديدرو باحثًا عن الكمال (أو عابثًا). فقد كان يعكف على مراجعة أعماله، حتى يرضى عنها (بشكل أو بآخر). ولذلك، أصبح تحرير كتابات ديدرو تحديًا رئيسيًا في المعرفة العلمية الفرنسية.

كانت حواراته المبكرة صريحة إلى حد كبير. ففيها يظهر ديدرو نفسه ويقدّم آراءه. ومن الأمثلة الجيدة على ذلك حواره مع دالومبور عام 1769. ففي هذا العمل يقدّم ديدرو مذهبًا ماديًا تمامًا، متضمنًا حجة تم عرضها في صفحات عدة يشير فيها إلى أن الصخور قد يكون لها درجة ما من الشعور والوعي. أصبحت طريقة ديدرو أكثر مكرًا في الحوارات التالية، ويمكن القول إنها أصبحت ملتوية. ففي نهاية هذا الحوار السابق ذكره، يقبل دالومبور قوة حجج ديدرو لكنه يصر على الالتزام بمذهبه. لكن في حوار «حلم دالومبور» (1769)، يصبح دالومبور هو من ينقل أفكار ديدرو، ولكن وهو نائم على كرسي. ويناقش بعد ذلك د. بوردو والآنسة دو لاسبيناس ما قاله دالومبور في نومه. وعندما يستيقظ يطلبون منه أن ينام مرة أخرى، أو لا يتدخل في حوارهما (في بقية الحوار، يُكملان من دونه). تعكس هذه الصياغة تصور ديدرو الحديث بأن نجد أفكارنا الحقيقية في الأوقات التي نفقد فيها الوعي، حيث تقوم أذهاننا بتحريرها كي تظهر في وعينا. وبالتالي، ما قاله دالومبور في حالة فقدانه للوعي هو ما يعتقده بالفعل، إلا أن الحقيقة أكثر تعقيدًا من ذلك.

حوارات مشتركة

أحد أبرز أمثلة فلسفة ديدرو الحوارية هو حوار تكملة رحلة بوينفيل Supplément au Voyage de Bougainville) 1772). يواجه ديدرو في هذا الحوار إحدى النظريات الرئيسية في القرن الثامن عشر، والتي تتحدث عن حالة الطبيعة التي كانت تعيشها الإنسانية البدائية، والهمجي النبيل الذي كان يعيش فيها. قارب روسو فكرة الحالة البدائية للإنسان من مدخل نظي؛ فقد افترض حالة الرجل البدائي وكيف وصل الجنس البشري إلى الحالة المتحضرة الحالية. (لاحظ هذه الضمائر الذكورية، سيكون لها أهمية). وعلى الجانب الآخر، ينطلق ديدرو من مثال حقيقي – وصف بوينفيل للمجتمع التاهيتي. (ومع ذلك، وبصفاقة أكبر، يدعي ديدرو أنه ينقل ما حذفه بوينفيل مما نشر!(وعلى عكس عادة ديدرو، كان المشاركون في هذا الحوار مجهولين. وفقط يتم الإشارة إليهم بـ A و B. ويمكن التخمين أن B هو ممثل ديدرو لأنه لديه الكثير ليقوله. ولكن كما سنرى، لا يعد هذا التخمين آمنًا.

كانت بداية الحوار هو الخطاب المزعوم لزعيم تاهيتي مسن يندد بالتدخل الأوروبي في الأعراف المحلية. وهو جزء رائع على طريقة خطابة روسو (مع أن لغة ديدرو ليست خطابية البتة)، مما يثير الطرف A للتعليق بأنه يبدو أوروبيًا. ويرد B على ذلك بأنه تم ترجمته من التاهيتية للإسبانية ثم إلى الفرنسية. ثم يضيف أن الزعيم أعطى النص لمترجمه أورو في الليلة السابقة على إلقائه، كي يستطيع ترجمته إلى الإسبانية كي يحصل بوينفيل على النص الإسباني في يده وقت إلقاء الخطبة اللاذعة.

هذه البداية نفسها تقوض أساس الفكرة الساذجة عن الهمجي النبيل. فأولًا، ترجمة الخطاب تذكرنا بأن المفهوم نفسه تم تنقيحه من خلال الإدراك الغربي بشكل ما من الترجمة؛ أي أننا نرى «الهمجي النبيل» من خلال منظورات أوروبية. وثانيًا، تشير البداية إلى أن الهمجي النبيل ليس جاهلًا أو عفويًا كما أراد منا روسو أن نعتقد؛ بل يمكنه على سبيل المثال أن يعد خطابًا مناسبًا بشكل مسبق.

يركز معظم الخطاب على حوار دار بين أورو وقس أتى مع بوينفيل. سكن القس مع أورو، وعرض عليه أورو أن يختار بين واحدة من بناته الثلاث أو زوجته لتكون شريكة جنسية له. أعترض القس باسم دينه وتبتله. وتتوسل أصغر بنات أورو للقس أن يختارها؛ لأن كلتا أختيها لديها أطفال، وهي لا، والذي كان وضعًا محرجًا لها. يخضع القس، وهو يشعر بالذنب (سيمارس الجنس بعدها مع الأخرتين، ومن باب التأدب مع زوجة أورو أيضًا). يجادل أورو في الحوار التالي بأن الأخلاق التي يتبعها تجعل الناس يختارون بشكل حر في علاقاتهم، بينما يعترف القس بأنه على العكس من ذلك، يعطي الأوروبيون وعودًا في العلاقات لا يحفظونها.

لكن في منتصف هذا الحوار، بطلب من A، يقطع B الحديث ليروي حكاية بولي بيكر (كما تم تنقيحها من تقرير كتبه بنجامين فرانكلين). ففي البداية سقطت بولي بيكر في إغواء رجل محلي وحملت منه، ثم أنجبت خمسة أطفال خارج إطار الزواج، والذي نظرت إليه باعتباره عملًا نافعًا لإنجلترا الجديدة، على الرغم من أنها تمت إدانتها بشكل مستمر في المحاكم.

وفي نهاية الحوار، يتم افتراض أن A وB يجب عليهما أن ينضما إلى السيدات. وكان الحوار التالي مثيرًا:

تتذكر فجأة أن الحوار بين أورو والقس؛ أي معظم النص، كان بين رجلين، فقد كان الصوت النسائي الوحيد الذي ظهر هو صوت ابنة أورو الأصغر وبولي بيكر؛ وأنها كانت تواجه مجتمعًا أبويًا تسامح مع إغوائها لكنه ندد بمحاولتها التعايش مع النتائج. وكذلك أورو من مجتمع أبوي. فعن نسائه يقول للقس: «إنهم ملكي، وأنا أهديهم إليك، إنهم ملكك، وسيمنحونك أنفسهم». ويظن المرء أن الجزء الأول من الجملة أكثر دقة من الثاني. ويشدد ديدرو على أن نتيجة الحرية الجنسية هي الحمل، أو بعبارة أخرى، يستمتع الرجل باللذة، وتتحمل المرأة العواقب. ففي هذا النموذج، يعد العيش في «حالة الطبيعة» خيارًا أفضل للرجل وليس المرأة.

وعلاوة على ذلك، إذا كان النساء يقولون شيئًا غير ما يعتقدون، هل يمكننا التأكد من أن A وB أنفسهم يعبرون عن أفكارهم الحقيقية؟ وكل ما كان ينقص هذه المحادثة هو النفي القائل بأن «الأفكار المتضمنة في هذا الحوار لا تمثل بالضرورة رأي الكاتب –أو المتحدثين فيها».

فلسفة حقيقية

كان فولتير وروسو يعرفان جيدًا ما يعتقدانه، وحاولا إقناع الآخرين بأن يفكروا مثلهم. ولكن يبدو أن ديدرو كان يعلم ما يعتقد، لكنه في حواراته الأخيرة كان يعرض رؤىً متعارضة ومختلفة، ثم يقوّضها بمكر. ويُظهر هذا أن ديدرو كان فيلسوفًا محبًا للحكمة بحق. فقد أحب الوقائع، وجمعها في الموسوعة Encyclopédie، لكنه أيضًا استكشف الأفكار ووجدها، على عكس الوقائع، ليست مطلقة، وأن الناس عادةً ما يهملون أن هنالك أفكارًا قد تتعارض مع أفكارهم. فكما فعل سقراط، لم يخبرنا ديدرو ماذا نعتقد، بل شجعنا على أن نعتقد بأنفسنا. وبناءً على هذا، كان ليتعاطف مع من صوتوا ضد انضمامه إلى البانثيون. وفي الحقيقة كان من الممكن أن يصوّت معهم.

عن موقع)اضاءات(

دنيس ديدرو والإبن الطبيعي

حسام موسى

ولد دنيس ديديرو ذلك المؤلف الموسوعي الذي يعتبر من اهم كتاب القرن الثامن عشر، في مدينه لانجرز الفرنسيه (1713 / 1784) ورغم غزاره علمه الا انه كان متأرجحاً ومتناقضاً في أفكاره.

فكان ديدرو يقول "كنت أفكر مثل الإنسان الحكيم واتصرف مثل المجنون". وكان يري ان انقلاب الأوضاع والخوف من الخسة ونتائج الفقر والهوي الجامح الذي يؤدي بصاحبه الي الخراب، ومن الخراب الي اليأس، ومن اليأس الي نهاية عنيفة، ليست بالأحداث النادرة.

ويقول: "هل تعتقد ان الأحداث لن تؤثر عليكم كموت الطاغية بطريقة عجيبة اوتضحية بطفل علي ملح آلهه أثينا أو آلهة روما «.

وكان قد وضع اساس موضوعات معرفية شاملة تجمع الاختراعات والافكار والعلوم.

وحين بدأ يكتب أثار ضجة في كتاباته واصبح من اهم كتاب الدراما البرجوازية في وقته. واذا كانت الدراما اليونانية تتحدث عن الآلهة وأنصاف الآلهة وعلاقة الانسان بالقضاء والقدر فإن الدراما البرجوازية تتجسد في الانسان ومشاعره وتجاربه وحياته الفعلية علي الأرض.

تعددت كتاباته المسرحية ومن اهم مسرحية الابن الطبيعي التي تم نشرها في عام 1757 والتي ضمنها كثير من افكاره الفلسفية والتي كان يدعو اليها.

وتدور حول دورفال العاشق لروزالي والذي يتأهب لمغادرة منزل صديقه كليرفيل واخته كنستانس والذي يستضيفانه فيه، وهو في صراع بين الواجب والعاطفة، واجب الصداقة تجاه صديقه كليرفيل الذي يحب روزالي، وعاطفته لروزالي.

وما ان يهم بالخروج حتي تصرح له كنستانس بعاطفتها نحوه، وفي صراعه بين واجبه وعاطفته، ينتهي للانتصار للواجب علي العاطفة ويضحي بثروته لكليرفيل ورزالي حتي يستطيعان اتمام الزواج.

وتستمر الأحداث حتي يأتي ليزموند حتي يخبر روزالي ودورفال انهما اخوان ويتم تزويج كليرفيل بروزالي ودروفال من كنستانس لتنتهي المسرحيه نهاية سعيدة عير مبررة شأنها شأن الميلودرامات.

كان يدرك ديدرو تماماً ان العمل الدرامي سوف يُمثل لذلك نجده في المسرحية التي بين أيدينا من خلال رؤيته التمثيلية، والملاحظات المسرحيه التي يكتبها تنبع من رؤيته وخياله للحالة النفسية التي تتواجد فيها الشخصيات.

وكان متبعاً للقاعدة الكلاسيكية في تكنيك الكتابة في المسرح الفرنسي والتي تعتمد علي دخول وخروج الشخصيات كمشاهد مستقلة، اذ ان دخول شخصية علي خشبة المسرح يعتبرمشهدا، ودخول شخصية اخرى يعتبر مشهد أخر، وخروج شخصية يعتبر مشهدا ثالثا، وبالتالي نجد ان المسرحية تتكون من خمسة فصول، وكل فصل فيه مجموعة من المشاهد طبقاً لدخول وخروج الشخصية.

حاول ديدرو ان يخرج عن القواعد التي نادي بها ارسطو، فنجد الشخصيات قد ابتعدت عن الآلهة وأنصاف الآلهة والأبطال الاسطوريين ولكنها شخصيات عادية لها مشاعرها وتجاربها.

اما بخصوص الصراع فابتعد صراع الانسان مع الآلهة وانصاف الآلهة وعلاقة الانسان بالقضاء والقدر، ولكن صراع بين العواطف صراع بين الواجب والعاطفة.

اما بخصوص الوحدات الثلاث المنسوبة الي ارسطو افتراءاً فان وحدة الزمان تعددت دوره الشمس الواحدة التي قال بها ارسطو، ولكن حافظ علي وحدة المكان حيث تقوم المسرحية كلها في مكان واحد وفي مدينة واحدة، وهو منزل كليرفيل.

وقد فضل الوصف عن اظهار مشاهد العنف وتجلي ذلك اثناء سرد اندريه لما حدث له هو وليزموند اثناء اعتقالهم.

ولم يحافظ علي قاعدة فصل الأنواع فالمسرحية تراجيدية وانتهت نهاية سعيدة غير مبررة.

ونجح ديدرو في اظهار عنصر التشويق حيث نجد طوال الفصل الأول ان الشخصيات الحاضرة تتكلم عن شخصية غائبة.. فكانوا يتحدثون عن روزالي.. وكان اول ظهور لها في الفصل الثاني في المشهد الذي كان يجمعها بخادمتها جوستين.

وطالما جاء ذكر الخدم فنجد ان الوظيفه الدراميه للخدم قد تطورت عن ذي قبل فاصبحوا يشاركون في النقاش والجدال مع اسيادهم دون ان يتجاوزا حدودهم الطبقيه، فنجد الخادم شارل يتناقش مع دورفال ويثنيه عن رحيله عن المنزل الذي يحتوي علي اناس قد استضافوه، وكذلك الخادمه جوستين وهي تثني روزالي عن هدم الابتعاد عن كليرفيل.

وعند تحليل الشخصيات نجد ان دورفال ذلك الشاب الثري هو شخصية مترددة وكثير التفكير وذلك اتضح اثناء تقكيره في الرحيل، فطالما اراد الرحيل فليرحل.

هو في صراع بين الواحب والعاطفه، واجب الصداقة لكليرفيل والعاطفة لوزالي وهو في الأخير ينتصر للواجب، ويضحي بثروته لاتمام زواج صديقه من محبوبته.

هو ابن طبيعي ناشئ من علاقة محرمة بين رجل وامرأة لا يوجد لديهم عائق للزواج يكتشف في الأخير ان التي يحبها هي اخته.

اما روزالي فهي فتاة في مقتبل العمر كانت متعلقة بكليرفيل وبمجرد ظهور دورفال تعلقت به، انها في صراع بين عاطفتها لدورفال وبين كليرفيل التي توقفت عن حبه بظهور دورفال.

وبمجرد علمها بحب دورفال من كنستانس انقلبت عليه وحاولت ان تظهر مساوئه.

اما كنستانس اخت كليرفيل فهي مطلقه وتعلقت بدورفال لما فيه من صفات جيدة، هي في صراع بين الفضيلة وبين اظهار حبها لدورفال، عندما علمت بمغادرة المنزل لم تقوي ان تتكتم حبها وصرحت لها.

كل افكار وعقائد ديدرو الفلسفية كان يجريها علي لسان كنستانس.

اما كليرفيل فهو شخصية سلبية ضعيفة يطلب من الأخرين مساعدته للتوسط اليه تجاه روزالي.

عن الحوار المتمدن

دنيس ديدرو.. الحواس في مواجهة الفلسفات العقلية

محمود عبدالله تهامي

ناقش الفيلسوف الفرنسي دنيس ديدرو مذهبه التجريبي والفكري من خلال كتابه "خطاب العميان" الذي يقدم من خلاله صورة مقربة لتحصيل العلوم والفكر عن طريق الحواس، طارحا شكوكه الكبيرة في تلك القضايا المثالية والكبرى التي ورثها العقل البشري من تراث للحضارات القديمة.

ديدرو، استغل تلك القصة التي يرويها في كتابه ليبرز منهجه وأفكاره بصورة بسيطة وواضحة، فهو يفترض أنه قام بزيارة لفلاح قروي ضرير، يعتمد على تواصله مع الحياة من خلال حواسة وخاصة حاسة اللمس.

وانشغل ديدرو دائما بعدة مواجهات فكرية خاضها، وتتضح اهتماماته وقضاياه تلك من عناوين كتبه، فقضية اعتماد الحواس بديلا عن الفلسفة العقلية تظهر من "خطاب العميان" وكتاب "رسائل عن الصم والبكم"، وهي تشير بصورة كبيرة لتقوية وتغذية بعض الحواس على حساب أخرى مفقودة، كتقوية اللمس والشم والسمع لفقد حاسة البصر، وقضية الدين والهجوم على الميتافيزيقية يظهر من خلال كتاب باسم "جولة المتشكك" وكتاب "الراهبة"، وكتاب "تأويل الطبيعة».

يمكن للإنسان- وفق تصورات ديدرو- أن يطرح معتقداته القديمة وأفكاره العقلانية التي ورثها من الفلسفات القديمة والتي تستند بصورة كبيرة على التأملات دون أن يستندوا إلى طبيعة الحواس في تحصيل المعارف، كانت هذه الأفكار تمثل لأصحابها وجهة نظر، ومن هنا هاجمهم ديدرو من خلال كتابه معتبرا أن ما حصلوه من النظر كان هراء ولا يستحق التمسك به في حين ما حصلته الحواس كان طيبا وجيدا على أحسن الأحوال، واقتضت تلك القضية أن تقوده لنقد القضايا الدينية المسيحية فتعرض لهجوم كبير ومحاكمة وسجن من وراء أفكاره الرافضة للميتافيزيقية.

لقد انتهى ذلك الفلاح الضرير بطل "خطاب العميان" إلى مفاهيم خاصة عن الجمال، والدين، والامتلاك، والعفة، اعتمادا على عمل الحواس، وليس خبرات العقل، فباتت الاستنارة العقلية هدفا لمذهب ديدرو التجريبي، فلا تزال مشاهداته الحسية قاعدة نهائية لأفكاره، ولا يسلّم بالفرضيات العقلية الموروثة الراسخة منذ الحضارة اليونانية.

ويعتبر الفيلسوف الفرنسي دنيس ديدرو من ضمن أهم علماء حركة التنوير في أوروبا، عرف بكونه كاتبا موسوعيا وفيلسوفا كبيرا، فقد كتب النقد والمسرح والقصة والمقالة الفنية، كما أشرف على إصدار "موسوعة الفنون والعلوم والحرف"، كان من أتباع المذهب التجريبي يسلّم بالوقائع العلميّة ويرفض المذاهب الميتافيزيقيّة، وقد جعله ذلك يتعرض للعقيدة المسيحية بالنقد، وناله من وراء ذلك هجوم شديد من الكنائس.

دينيس ديدرو.. الفلسفة في خدمة الحقيقة

علي حسين

عندما كان يفيق من غيبوبته، كان يردد ما قاله له يوما صديقه جان جاك روسو " نحن كائنات شُرفت بقوة التفكير "، ثم يذهب إلى الغيبوبة من جديد. كان قد اصيب بورم في رئتيه، قال الاطباء لعائلته ان لا أمل في الشفاء. أوصى ان تذهب مكتبته الكبيرة الى كاترين الثانية امبراطورة روسيا.كانت كاترين ترتبط بعلاقة صداقة مع معظم فلاسفة فرنسا وحرصت على أن تقرأ كتبهم ووجهت دعوات الى فولتير وروسو ودلامبير، بل انها كانت ترغب ان يتولى احدهم تعليم ابنها، وكان ديدرو قد تلقى في حياته مساعدات مالية من كاترين لاكمال مشروع " الموسوعة الفلسفية "، فعندما توقف المشروع بسبب الضائقة المالية التي كان يعاني منها قرر ديدرو بيع مكتبته لتغطية النفقات، اقترحت عليه امبراطورة روسيا ان تشتري منه المكتبة بالسعر الذي يريده شرط ان تظل الكتب في بيته لاكمال مشروع " الموسوعة الفلسفية "، وخصصت له راتبا شهريا بصفته أمين المكتبة.

عام 1750 يكتب دينيس ديدرو: " إن وجود الإنسان هو الذي يجعل الأشياء الأخرى مثيرة للاهتمام. فلماذا لا نجعله المركز الذي تتركز عليه شتى النواحي.. إن الإنسان هو الكلمة الوحيدة التي علينا أن نبدأ منها ".. منذ ذلك الحين أصبحت الفلسفة مهتمة بدراسة الإنسان، وأصبح موضوع علاقة الإنسان بإرادته وقدراته هو المستودع العظيم لأفكار فلاسفة التنوير الفرنسي.

كانت الموسوعة التي اشرف على اصدارها ديدرو تعد المستودع الاهم لافكار عصر التنوير. صدر المجلد الاول منها عام 1751 وجاء في الافتتاحية التي كتبها ديدرو: " إننا نهدف إلى نقد التعصب الديني الأعمى وكذلك التعصب السياسي أو بالأحرى الاستبداد السياسي، هذا بالإضافة إلى مدح الروح النقدية للعقل وحرية الفكر. ففرنسا بحاجة إلى أن تتنفس بحرية، إلى أن تتقن الروح النقدية الإبداعية بعد سبات طويل. آن أن تستيقظ فرنسا! فقد سبقها الآخرون ". في العام التالي يصدر المجلد الثاني وستحاول الحكومة الفرنسية ان توقف اصدارها بحجة انها معادية للدين، لكن اصرار ديدرو ومعه زميله دالمبير ووقوف المفكرين الفرنسيين مع المشروع اتاح للموسوعة ان تصدر حتى عام 1870 بخمسة وثلاثين مجلدا. كان هدف الموسوعة السعي الى كل العقائد والعلوم بلا أي مجاملة أو مراعاة. فكل شيء ينبغي أن يخضع لسلاح النقد ومنظار العقل، بما فيه التراث المسيحي المقدس نفسه. ولهذا السبب، اصطدم ديدرو برجال الدين الذين حاولوا عرقلة مشروعه، بل أوقفوه أكثر من مرة قبل أن يعود إلى مواصلة العمل من جديد.

ولد "دينيس ديدرو " في الخامس من تشرين الأول عام 1713 في مدينة لونكريه بفرنسا. وكان ذلك بعد سنة من ميلاد جان جاك روسو. كان ابنا لتاجر صغير تمنى ان يصبح احد اولاده قسيسا، وينقل دنيس عن والده قوله "أي بني، أن العقل وسادة ممتازة وثيرة ولكني أجد إثارة وراحة أكثر حين أسند رأسي إلى وسادة الدين والقوانين ". ألتحق بمدرسة يسوعية وفي الثانية عشرة من عمره حلق شعر رأسه وارتدى لباس الكاهن، وعاش حياة الزهد والتقشف، حيث عقد العزم على أن يكون راهبا وفسر ما جرى له، بأنه نوعا من انواع حماسة المراهقين، وانه كان على خطأ ، كان الوالد فرحا بابنه الذي سيحقق له حلمه ، لكن دينيس اكتشف ان باريس مدينة للهو وليست للعبادة. فخلع ثوب الكاهن ، وأنصرف إلى دراسة القانون نهارا والتدريب عند أحد المحامين ليلا. لكنه سرعان ما يترك القانون، وقال لوالده انه لا يريد أن يصبح محامياً، وحين سأله ما هي المهنة التي يرغب بها، أجاب: " إني أهوى المطالعة، ولا شيء سواها اقترحه لنفسي، لأني لا أطمع بشيء أكثر "، تنقل من مهنة الى اخرى. وعانى آلام الفقر حيث كان يسكن في غرفة على احد سطوح البنايات، منع عنه والده النقود، لكن والدته كانت تمده ببعض المعونة بشكل خفي. عمل مدرسا في بعض بيوت الطبقة الارستقراطية ، كتب عظات للقساوسة، أشتغل بائعا للكتب، وفي نفس الوقت تابع دراسته في الرياضيات واللاتينية واليونانية والإنجليزية، والإيطالية. عام 1741 يصبح حاسماً في حياته حيث يلتقي بشاب جاء الى باريس من الريف ليجرب حظه في المسرح، كان هذا الشاب اسمه جان جاك روسو الذي ارتبط معه بصداقة وثيقة منذ ذلك التاريخ.

كان ديدرو يشبه نفسه بالريح، فهو دائم الإندفاع نحو الاطلاع على أي نوع من أنواع المعرفة، تعرض للمطاردة والسجن بسبب اراءه، في السجن كان يخطط لإصدار كتاب موسوعي كانت فكرته قد ظهرت لأول مرة عندما اقترح عليه أحد تجار الكتب القيام بترجمة قاموس فلسفي من الانكليزية الى الفرنسية، لكن ديدرو اقنعه بأن يجمع مقالات مختلفة بأقلام رواد الفكر في ذلك العصر وإصدارها في مجلد كبير، وقد تطور الامر ليتحول الكتاب الى موسوعة كتب فيها روسو عن الموسيقى وعن الاقتصاد، وقدم مونتسكيو مقالاً عن الذوق، ونجد فولتير يكتب في القسم الأدبي، فيما كتب ديدرو عن الطبيعة، حيث طرح آراء في النشوء والتطور سبقت نظرية داروين. كانت الموسوعة صرحاً للمعرفة شاركت فيه أكبر العقول، حيث سعى ديدرو من خلالها الى إبراز المعارف الجديدة، مستهدفاً زعزعة مجتمع مدفون في ماضٍ مغبر، وقد بلورت الموسوعة فلسفة الأنوار التي شهدت بروز النهضة الأوروبية الحديثة، بعدها أصدر ديدرو كتاباً بعنوان "اعترافات راهبة" وجه فيه نقداً شديداً للأديرة.

عاش ديدرو قصة حب مثيرة، كانت المراة التي احبها تكبره باربع سنوات. كتب لها " أن خطابات غرامي الأخيرة موجهة لك، ولتعاقبني السماء باعتباري أشر الناس وأشدهم خيانة وغدراً إذا سطرت كتاب غرام إلى أحد غيرك ". وافقت عائلتها على الزواج منه شريطة ان يحصل على موافقة والده الذي وجد ان ابنه شاب كسول لا يصلح للزواج ، في السادس والعشرين من تشرين الثاني عام 1743 يعلن عن زواجه من انطوانيت رغم معارضة الاهل.

استسلم في شبابه الى فتنة الفلسفة، لأنها تحفزه على طرح الاسئلة ، وقد تأثر بكتابات مونتاني ووجد في صفحات كتابه " المقالات " مرجعا اساسيا لدراسة احوال البشر، يتفرغ لدراسة الفلسفة اليونانية والرومانية ويكتب مقالات عن ديموقريطس، وأبيقوز وتسحره سخرية لوكريتس في كتابه " في طبيعة الاشياء "، يتعلم الانكليزية ليقرا كتابات فرانسيس بيكون ودعوته إلى قهر الطبيعة وطريق البحث العلمي المنظم، اعلن ان التجربة أداة عظيمة للعقل. درس التشريح والفيزياء، في عام 1745 ترجم كتاب الفيلسوف الإنكليزي شافتسبري " استعلام حول الفضيلة والجدارة "، واضاف اليه عددا من التأملات. وقد كان شافتسبري ينطلق من فكرة تؤمن بوجود مفهوم شامل للصواب والخطأ، وان ما يميز الإنسان عن باقي المخلوقات انه يدرك التوجه الصحيح بعقله، بل ويسعى إليه، وهنا يدخل هذا السلوك فيما يطلق عليه " مفهوم الفضيلة " التي يرى شافتسبري أن هدفها الأعم هو الرقي بالإنسانية ككل، لأن السلوك الفردي القويم يجب أن ينصب على خلق نظام عام قويم، واضاف ديدرو الى فكرة شافتسبري عن الفضيلة أن قانوناً أخلاقياً مؤسساً على العقل، لا على الدين، يفيد النظام الاجتماعي بدرجة كافية.

عام 1746، اصدر كتابا بعنوان "أفكار فلسفية" دون أن يضع اسمه عليه وقد نسب الكتاب الى عدد من الفلاسفة منهم فولتير. وفيه يقدم دفاعا عن " الانفعالات " التي يرى انها يمكن ان ترتفع بالنفس إلى الأشياء العظيمة، لكنه يرى ان الانفعالات بدون نظام ستصبح مدمرة، ولا بد من إيجاد طريقة ليكبح الواحد جماح الآخر. ومن هنا نحتاج إلى العقل، وينبغي أن يكون أعظم هاد ومرشد لنا، وكان هذا الكتاب محاولة مبكرة في عصر التنوير للتوفيق بين العقل والوجدان، بين فولتير وروسو.

عام 1784، يعاني ديدرو من آلام في الرئة والمعدة، لم تمهله طويلاً، وأثناء مرضه زاره أحد القساوسة طالباً منه أن يعلن توبته، فقال له باسما: "إني أوافقك أيها السيد الخوري، لكن ذلك سيكون من جانبي كذبة وقحة لايصدقها أحد". وخلافا لمعاصريه روسو وفولتير، لم يدفن ديدرو في مقبرة العظماء "البانتيون"، بالرغم من انه يعد المرجع الاول لفلسفة التنوير في فرنسا، وكان له تاثير في مجالات كثيرة، فلسفة، وفنون، ورواية، حيث تعد روايته " جاك القدري " اهم عمل روائي فلسفي تنويري، وتوصف بانها رواية الحرية. كان ديدرو قبل كتابة " جاك القدري " قد عثر على رواية " حياة تريسترام شاندي وآراؤه " التي كتبها الانكليزي لورنس ستيرن، وسيكتب في السادس والعشرين من ايلول عالم 1762 رسالة الى صوفي فولان يقول فيها: " تورطت منذ ايام بقراءة الكتاب الاكثر جنونا والاكثر حكمة والاكثر مرحا بين كافة الكتب ". توصف جاك القدري بانها رواية مغامرات يتناول من خلالها ديدرو العلاقة بين الخادم جاك وسيده، وينتقد من خلالها النظام الفكري الذي تفرضه مؤسسات السلطة والكنيسة لتقييد حرية الانسان، من خلال اشاعة مفاهيم تتعلق بحماية المقدس الديني والسياسي، حيث يرى ديدرو ان هذه المؤسسات تحاول ان تشيع وعيا زائفا بين الناس، وتسعى الى تحصين المؤسسة الدينية من كل اشكال

هل ديدرو أهمّ فيلسوف في حلقة الأنوار؟

حسونة المصباحي

لا يحبّ الفرنسيّ جاك أتّالي المولود في الجزار عام 1943 أن يغيب عن أيّ مجال من المجالات المهمّة التي تتطلّب الحنكة والذّكاء، وبُعْدَ النظر، والثقافة الواسعة، والمعرفة الدقيقة بالماضي والحاضر، وربّما المستقبل. فهو سياسيّ بارع اختاره ميتران مستشارا له في الثمانينات من القرن الماضي ليكون الى جانبه في قصر "الإيليزيه" على مدى سنوات طويلة. وهو روائي غزير الإنتاج، وناقد مرموق، وكاتب سير لشخصيّات تاريخية كبيرة، وموسيقيّ متقن لفنّه.

واعتمادا على مواهبه المتعدّدة هذه، هو يرغب دائما في مفاجأة أحبائه في المجالات المذكورة بما ينفعهم،، ويفيدهم، ويمتعهم أيضا. وفي خريف عام2012، أصدر جاك أتّالي كتابا عن الفيلسوف الفرنسي الكبير دنيس ديدرو الذي كانت فرنسا قد احتفلت آنذاك بمرور ثلاثة قرون على ميلاده. عنوان الكتاب: "ديدرو أو السّعادة في أن نفكّر". ومقارنا بينه وبين المعاصرين له، أي فولتير وروسو، يقول جاك أتّالي: "بالنسبة لي هو الأهم في حلقة فلاسفة الأنوار. فهو رجل ذكيّ بشكل هائل، إنتقائيّ، مؤثّر، لا يكلّ ولا يملّ من العمل. وهو بحر من العلم أسّس إعتمادا على "الأنسيكلوبيديا"، قاعدة الثّورة السياسيّة، والفلسفيّة، والإقتصاديّة في أوروبا. بالإضافة إلى كلّ هذا، أجد نفسي مَفْتونا بطريقته في كتابة رسائل الحبّ.

وأنا أرى أنّه ليس بأستطاعتنا أن نكتب اليوم رسائل حبّ من دون أن نستوحي منه الآفا من الإبتكارت التي يستخدمها بهدف ختم رسائله بطريقة عذبة، رقيقة، أنيقة، شبقيّة، ساخرة، وسامية، جاعلا من كلّ جملة عملا فنّيّا بديعا.

وفي حين ترك كل من فولتير وروسو فرنسا في فترات من حياتهما، فضّل ديدرو البقاء في بلاده ليكون شاهدا على أحداث هامة وخطيرة سبقت الثورة الفرنسية. لذلك يمكن القول أنه فهم كلّ شيء بخصوص عالم كان كان على وشك أن يرحل، وعالم كان على وشك أن يولد. لقد كان رائيا، ورائدا، ومساجلا بارعا، وصارما. ومتحرّرا من الإلتزامات، كان ديدرو يرفض التّسويات، ويتحدّى كبار الشخصيّات في عصره.

وقد سُجن بسبب حرّيته في التّفكير. وبفضل "الأنسيكلوبيديا"، كان آخر رجل استوعب علوم عصره. فعل كلّ هذا مع المحافظة على "نبل قلبه". ويرى جاك أتّالي أنّ أعمال ديدرو الفلسفيّة، والرّوائيّة، وغيرها، تعكس جيّدا أحداث القرن الثّامن عشر، وما تميّز به في العديد من المجالات السّياسيّة، والإقتصاديّة، والإجتماعيّة. فقد كانت فرنسا في ذلك الوقت بلدا غنيّا لكنه لم يكن قادرا على تنفيذ إصلاحات. لذا كانت مشلولة. وكان الوضع الماليّ كارثيّا.

أمّا على المستوى العالمي، فقد كانت الصّين قوّة ديمغرافيّة كبرى، وفيها كانت هناك إنتفاضات من أجل الحرية مثلما هو الحال اليوم في العالم العربي. وبفضل اكتشافات بوغنفيل وكوك، بدأ يتشكّل نوع من العولمة. وكان ديدرو يرى أن حقوق الإنسان مرتبطة بواجباته أيضا. ففي القديم، في العالم الذي يتحكّم فيه الدّين، مثلا، لم يكن للنّاس غير الواجبات. ثم أصبح الوضع معكوسا ولم يعد يؤخذ بعين الإعتبار غير الحقوق. والحقيقة أنه لا بدّ من احترام الحقوق والواجبات معا. وهذا ما أدركه ديدرو بحسب جاك أتّالي، لذا كان محرّكا للتّاريخ.

وهذا ما تدلّ عليه الرّسالة التي بعث بها إلى الملك لويس السّادس عشر، حيث كتب له يقول: "إذا ما أنتم غير قادرين على الفصل في مصلحة الشعب، فإنّ الشعب سيستعمل نفس السكّين لكي يقطعكم إلى نصفين". وعن السّعادة في التفكير عند ديدرو، يقول جاك أتّالي: "هناك اليوم مفكّرون كبار في أنحاء مختلفة من العالم. والفلسفة نشطة جدّا كما لم يحدث ذلك من قبل. فقط يجدر بنا ألاّ نستسلم لعبث التّسلية، وألاّ نُهْمل ضرورة التّفكير، مثلما هو الشّأن في العديد من الحالات. في حين أن التّفكير نشاط مجاني، ومنبع للذّة والمتعة. أن نفكّر يعني أن نتعلّم كيف تكون لنا حياة داخليّة. التّفكير هو السّعادة. وهو الشكل الأقصى للتحرّر، والتّفتّح. وهو نشاط أساسي يميّزنا عن الحيوان. والتفكير هو أيضا نشاط سياسي، والحقّ والواجب في التّفكير هما من جملة الحقوق والواجبات بالنّسبة للإنسان».

عن موقع ايلاف

النقد، حيث نشاهد جاك وهو يسخر من الافكار الذرائعية ومن الافكار اللاهوتية التي تتلاعب بمشاعر الانسان. اثارت جاك القدري الكثير من النقاشات واعتبرها غوته بعد ان قام بقترجمتها الى الالمانية الشرارة التي اشعلت ضياء التنوير في اوربا.

في التاسع من حزيران عام 1749 ينشر ديدرو كتابا صغير الحجم بعنوان "رسالة حول العميان لخدمة المبصرين" والكتاب عبارة عن رسالة موجهة إلى مدام بويسبيه. يبدأ فيها بوصف زيارة قام بها مع مجموعة من الاصدقاء لمزرعة يديرها رجل اعمى. وقد أذهلهم روح النظام عند الرجل حيث كانت حواسه الباقية أقوى من حواس الناس العاديين. وكيف ان تجربته في الحياة ان افكار الانسان عن الصواب والخطأ ليست مستمدة من الدين او القوانين، بل من خبرتنا الحسية. بل وحتى فكرتنا عن الله يجب تعليمها، وهي أيضاً مثل فكرتنا عن الأخلاق، نسبية متنوعة. ويؤكد ديدرو في رسالة حول العميان على أهمية أن تعود المعرفة الإنسانية الى التجربة، وإن الأفكار ليست مقياساً للوجود، كما أن فهم رأي من الآراء وإدراكه لايمكن أن يصبح برهاناً عليه، وإن التجربة الإنسانية لايمكن أن تكون الحد النهائي لحقيقة وجود الكائنات.

في رسالة الى العميان يقوم ديدرو بسؤال المزارع الاعمى حول موضوعة الاخلاق، وكيف ينظر الى ثنائية الخير والشر، فيلاحظ ان المزارع يكره السرقة لانها طريقة سهلة للشر يقوم بها الانسان دون ان يلحظ احد ذلك، وهو لا يعتقد ان الفضيلة ترتبط بملابس الانسان او بكونه عاريا، فهو لايفهم لماذا يغطي الانسان جزء من جسمه ويعتبره كشفه امرا منافيا للاخلاق، فالخير مرهون عنده بطريقة احساسه به، وتاثيره عليه، فلا فرق بين انسان يرتدي ملابس وانسان عاري، لانه في النهاية لا يرى ذلك، وايضا لا يعتقد ان الامر يلحق ضررا بالانسان وهو يرى ان المبصرين لا يحترمون القانون إلا لانهم يخافون منه، فلولا الخوف لم يجدوا اي ضرر في قتل الإنسان، يتوصل ديدرو الى ان أغلب مبادئ المبصرين تبدو للمزارع الاعمى غير معقولة، فهو يدرك الأشياء، ويفهمها، حسبما تتيح له حواسه، ومن ذلك فالعميان لا يهتمون كثيرا للظواهر المرئية، فلا يأبهون مثلا لحركة الكواكب، فيما يراها المبصرون عبرة من الخالق..

أثار الكتاب عند صدوره ضجة كبيرة، دفعت فولتير الى أن يرسل له رسالة حماسية يقول فيها: "قرأت في سرور بالغ كتابك الذي يذكر الشيء الكثير ويوحي بشيء أكثر. وكنت منذ أمد أقدرك أعظم التقدير، بقدر ما أحتقر أولئك الأغبياء الذين ينقصون من قدر ما لا يفهمون، ولكني أعترف لك أني لست من رأي صاحبك الأعمى الذي ينكر وجود إله، لأنه ولد أعمى. وربما كنت مخطئاً، ولكن لو أني في مكانه لاعترفت بوجود كائن أعظم بارع وهبني إضافات كثيرة تكمّل البصر. أود من كل قلبي أن أتحدث إليك، وليس يهمني أن تعتقد إنك واحد من مخلوقاته، أو إنك جزء دقيق التنظيم من مادة أبدية ضرورية. وقبل مغادرتي لونفيل أرجو أن تشرفني بتناول عشاء فلسفي معي، في داري بصحبة بعض الحكماء».

ويرد عليه ديدرو قائلاً: "سيدي الأستاذ العزيز: إن اللحظة التي تسلمت فيها خطابك من أسعد لحظات الحياة، ليس يهمني مطلقاً أن تؤمن بالله أو لا تؤمن به، لقد قال مونتاني إن العالم كرة تخلى عنها الإله للفلاسفة ليهيموا على وجوههم مطوفين حولها"، وبسبب هذا الكتاب قامت الشرطة باقتياد ديدرو إلى السّجن، حيث ثارت ضده الكنيسة ووجدت ان على الحكومة ان توقف هجماته ضد الدين وإيقافه عند حده، حيث سجن في قلعة فنسان "بعد ان صادرت الشرطة النسخ المطبوعة من كتاب "رسالة حول العميان" وفي السجن وضع بمفرده في زنزانة، وسمح له بالاحتفاظ بكتاب كان في جيبه عند اعتقاله "الفردوس المفقود" لجون ميلتون، حيث قضى فترة السجن يقرا الكتاب بعناية ويضع عليه تعليقات وحواشي، واستخدم الصفحات الخالية من الكتاب في تدوين بعض الافكار.

لعل الفكرة الاساسية التي اراد ديدرو ايصالها من خلال "رسالة حول العميان" ان المبصرين من رجال الدين اخفقوا في رؤية العالم، فاتهموا سواهم بالعمى.

علامات الممثل عند دينس ديدرو

أحمد شرجي

اغتنى المسرح بشكل عام وفن الممثل والتمثيل بشكل خاص بطروحات الفرنسي (ديدرو)، لأنه كان الأكثر أهتماماً بالتنظير لفن الممثل، بل إن طروحاته مهدت لأغلب التنظيرات لفن الممثل اللاحقة ومنها طروحات الروسي ستانسلافسكي، الذي لم يكن متأثراً بطروحاته حسب، بل تبنى أغلب تلك الطروحات.

عُرف عنه بأنه أول من اتبع الطبيعية Naturalism في المسرح، وهذا ليس غريباً، لأن الطبيعية كانت سمة هذا القرن، وهذا الاتباع للمذهب الطبيعي، يدفعنا بلا أدنى شك إلى استنساخ الحياة بكل تفاصيلها على خشبة المسرح. وبما أن الممثل أهم عنصر في منظومة العرض المسرحي، إذا يجب أن يكون أسلوبه على خشبة المسرح على وفق ديدرو شبيها بأسلوبه في الحياة، بمعنى أنه يستعير شخصية حياتية بكل تفاصيلها، وأحاسيسها ومشاعرها ونقلها إلى الخشبة، بدلاً من ممثلين كأنهم روبوتات تسير بخطوات محسوبة، وتمثل ما يملى عليها من ارشادات مسرحية Stage Directions، مصدر سعادتها أن تحظى بتصفيق الجمهور، وخاصة الذين يجلسون في المقاعد الأمامية. لهذا سعى ديدرو لتجاهل حضور الجمهور من ذهنية الممثل، وطلب أن ينساه تماماً، وكأنه يمثل داخل غرفته، يتصرف بتلقائية تفرضها عليه روحية المشهد والمسرحية، في الحياتي واليومي، نصح الممثلين بأن لا يفكروا في الجمهور أكثر مما لو أنه لم يوجد قط. تخيلوا حائطا هائلاً عند مقدمة خشبة المسرح، يفصلكم عن الجمهور، وتصرفوا وكأن الستار لم يرفع أبداً". وإيغالاً في هذا التجاهل لحضور الجمهور، طالب الممثلون أن يديروا ظهورهم له بين فترة وأخرى طوال مدة العرض، وأن يكون إلقاؤهم أشبه بإلقاء القطع النثرية في الحياة اليومية، والإيهام بوجود جدار وهمي افتراضاً على الخشبة يفصل بين عالمي الخشبة والصالة، وعادة ما أطلق عليه الجدار الرابع The Fourth Wall، من أجل الإيغال في الإيهام Illusion، إيهام المتفرج بأن كل الذي يجري أمامه هو حقيقة حياتية.

أهتم ديدرو بتقديم الإحساس الداخلي للممثل، على حساب قدرات الممثل الجسدية والحركية، ويفضله على الفهم والحكم والفكر، بل يؤكد على ذوبان الممثل وفقدانه للوعي في أثناء تصويره للمشاعر الداخلية. ويصر على أن الممثل العظيم، هو ذلك الممثل الذي يعيش داخل الشخصية ويتماثل مع أحداثها وكأنها جزء منه، بل إنها حدثت له وليس للشخصية، وهكذا سيحلق بعوالمها الداخلية على الخشبة. فالإحساس يقود إلى فهم المواقف الروحية للشخصية،إذ يشكل الإحساس الداخلي العلامة الكبرى التي يجب على الممثل الاشتغال على نموها وتطورها، لأنها تعمل بديناميكية عالية، فهي التي تقوده لفهم روحية المواقف داخل المشهد والمسرحية، وتحدد له طريقة النغمة الصوتية، وطريقة الإلقاء، بمعنى آخر يكون الاشتغال على وفق التداخل بين الممثل الإيقونة (كشخص عادي)، والشخصية العلامة، وهو تداخل متكامل، نفسي وجسدي، هذا الاشتغال يتم عن طريق، التوحد مع الإحساس الكامل، من خلال معايشة الشخصية، وتبنيها، فهو يمثل مصدراً لكل تقلباتها، هذا ما امتازت به المرحلة الأولى من الاشتغال. بعد عشر سنوات جاءت المرحلة الثانية، وكتب فيها "إن الممثل الذي لا يملك سوى العقل والتقدير المحسوب يكون شديد البرودة؛ والممثل الذي لا يملك سوى الإثارة والانفعالية يكون سخيفاً"، فيفندُ بذلك كل طروحاته الأولى، التي أكد فيها على ضرورة سيادة الإحساس وقدرته الخلاقة على تحفيز الممثل، والحصول على الإيهام

. وامتازت طروحات هذه المرحلة بفكرة الموازنة بين التفكير العقلاني وبين شدة الإحساس، لأن الإحساس لا يمكن أن يكون يقظا طوال مدة العرض المسرحي، بل التفكير وتحكم العقل في التعامل مع الإحساس، يعطيه ديناميكية في عملية توزيعه بشكل متساوٍ داخل العرض. وهذا جوهر التناقض الذي ذكره إدوين ديور، فلم يعد في هذه المرحلة من الاشتغال، أسلوب الممثل مشابهاً لأسلوب الحياة، وأن يمثل وكأنه يتعايش مع يومياته، بل التوازن بين العقل والتفكير المحسوب، أهم الضرورات الأساس لفن التمثيل. ولا وجود لتمثيل عظيم من دونهما، وألا يكون الممثلين مجرد ناسخين حساسين للطبيعة، بل يجب عليهم التمتع بالحذاقة حتى يكونوا مبدعين، حتى أصبح الإحساس عند ديدرو "لا يمكنه بذاته أن يصنع فناناً. ولكي يكون فناناً عظيماً يجب على الشخص ذو الإحساس أن يفعل أكثر من مجرد إظهاره". وبناء عليه، فإن الإحساس وتدفقاته العالية يقوض العملية التواصلية بين الممثل والجمهور، لأنه من العسير أن يكون التمثيل خارجا من القلب داخل العرض المسرحي وعليه حدد ديدرو أربعة أسباب متداخلة لصعوبة التمثيل الكلي من القلب:

1. إن الإحساس ليس هو السمة المميزة للعبقرية العظيمة، بل القدرة على الفهم بعمق، كذلك اتحاد الذاكرة مع الخيال، لهذا يجب أن يكون الممثل مختلفا عن الرسام والشاعر والخطيب والموسيقي، لأنه لا يتولد إبداع الممثل من لحظة انفجار الحدث، بل من خلال الثبات والسيطرة على النفس، ومن ثمَّ يجب أن يسيطر عقل الممثل على قلبه.

2. إن الممثل الذي يتغلب عليه انفعالاته لا يستطيع السيطرة على ردود أفعاله على المسرح. ولا يستطيع أن يمتلك حرية عقله، بل يكون تحت تاثير انفعالاته الآنية، وعندها يكون غير مدرك للمهام الجوهرية للخطاب المسرحي. فالممثل الذي يتملكه انفعاله على الخشبة، سيكون مبهرا وساحرا لدقائق معدودة داخل العرض. لكنه بالمقابل سيخسر الدور طوال زمن العرض، لكن الممثل العظيم، هو الذي يضع خطة كاملة لكل تحولات الشخصية، نقاط ضعفها، قوتها، اتحادها مع الضوء والظلام، وأن تتسم بالتنوع طوال العرض.

3. الشخصيات هي مجموعة أشباح، صنعها الخيال الخاص للمؤلف أو الشاعر، لهذا يجب على الممثل ألا يطلق العنان لعواطفه على الخشبة، كما يفعل بالحياة، بل التعامل مع النص بوصفه عملا فنيا مخطط اومُؤلفا.

4. أن يبقى الممثل بحدود الشخصية، وألا يكون مفرط الإحساس، وألا يلعب الشخصية بدل المؤلف، ولا يشتت نفسه، بأن يظل هو نفسه.

إذن، الخيال يقود عملية الخلق العالية للشخصية، بعيدا عن طريق الإحساس المفرط، الذي يعتمده الممثل، وطبعا ألا يبتعد التجسيد عن عملية التخيل. فهذا معناه تقويض لضرورات التمثيل والممثل، وبهذا يكون ديدرو قد ابتكر ثلاثية للخلق:

1. إثارة الحماس Enthousiasme عن طريق إدراك معنى ظاهرة معينة.

2. شحذ الخيال بالحماس ليشكل كماً من الصور التي يتم بها التعبير عن المعنى؛ وهذه هي أهم لحظة في المعالجة، لحظة الإلهام.

3. العقل أو التفكير الذي يتحكم في أداة المبدع التكنيكية، ويرسي نظاماً بين الصور ويمنحها إدراكاً مادياً مفهوماً.

رسالة عن العميان في خدمة المبصرين

د. عبدالله إبراهيم

خصّ المفكّر الفرنسي "دنيس ديدرو" العميان بكتيّب نشره في عام 1749، وكان في السادسة والثلاثين من عمره، بعنوان "رسالة عن العميان في خدمة المبصرين" وظهر بصورة خطاب موجّه إلى السيدة "دي بويسييه"، هي إحدى خليلاته، فنهج فيه نهج التأليف بالرسائل كما اعتمد بذلك في كتابه "رسالة عن الصمّ والبُكم في خدمة السامعين والناطقين"، وروايته "الراهبة"، وهو أسلوب شاع في الكتابة خلال القرن الثامن عشر، لجأ إليه كثير من الكتّاب، وفيه اختار أن يصف حال الأعمى في سلوكه وعاداته وخبراته ليبيّن أثر الحواس في كشف الحقائق. والكتاب وصف استطرادي لزيارة افتراضية قام بها "ديدرو" لفلاح ضرير أثار عجبه بدقته، وتنظيم شؤون حياته، واستخدام حاسة اللمس بدل حاسة البصر التي فقدها بعد سنة من ولادته، فكان يتولّى ترتيب بيته على خير ما ينبغي أن يكون الترتيب، وتطوّرت خبراته عن نفسه وعن العالم بدرجة تفوق ما لدى المبصرين؛ لأنه أقام علاقته مع الأشياء بواسطة اللمس وليس البصر، فأجرى تبادلاً في وظائف حواسه بتنمية ما لديه منها على حساب ما فقد، وإلى ذلك انتهى ذلك الفلاح الضرير إلى مفاهيم خاصة عن الجمال، والإيمان، والمُلكية، والحشمة، اعتماداً على عمل الحواس، وليس خبرات العقل.

لم يكن غريباً أن يهتم "ديدرو" بموضوع العميان، فقد خصّ الصمّ والبكم، بكتاب آخر، فيما بعد، ذلك أنه مفكّر متنوع الاهتمامات، ظهر في الحقبة التي بدأت تلوح فيها معالم نقد الميتافزيقيا في الثقافة الغربية، وإحلال الخبرات الحسية في شؤون الحياة محلّ الفرضيات العقلية التي رسختها الفلسفة المثالية، وقد مزج "ديدرو" بين القضايا الفكرية العامة، والملاحظات الشخصية العملية، وهجّن موقفا دنيويا يتيح له معالجة الظواهر الاجتماعية والثقافية من منظور يتجلّى فيه سياق عصره، ورأيه، وخبراته، وهو يربأ بجعل مشاهداته الحسية قاعدة نهائية لأفكاره، ولا يسلّم بالفرضيات العقلية الموروثة الراسخة منذ الحقبة اليونانية، إنما يهذّب من الأمرين خبرة عملية تفيد المجتمع الذي يعيش فيه، فنزعته الفكرية ذات بعد تاريخي خلخلت ركائز الميتافيزيقا الغربية بأن قيّدتها بموضوعات خاصة بها، وأفرغتها من جموحها الديني، حينما جعلت من الاستنارة العقلية طريقة لفهم العالم، والمشاركة في تغييره.

نظر "ديدرو" إلى الطبيعة باعتبارها "قوة نصف عمياء ونصف ذكية، تؤثر في المادة وتبعث فيها الحياة، وتهيئ للحياة مليون شكل تجريبي، وتدخل التحسين على هذا العضو، وتنبذ ذاك العضو، تحيي وتميت بشكل مبدع. وفي هذا المعمل الكوني ظهرت واختفت آلاف الأنواع" لأنها كما قال علّل "ديورانت" ذلك "عمياء تدمّر الفلاسفة والحمقى على حد سواء". فلا غرابة أن تحضر مفاهيم العمى والإبصار في سياق يقصد به الجهل والمعرفة، وهي مفاهيم نسبية، فكل جهل يمكن أن يصبح معرفة، وكل معرفة يمكن أن تؤول إلى جهل، إذا ما أساء المرء استخدام خبراته الحسية، وملكاته العقلية، وقد غمز "ديدرو" على أولئك القائلين بأن بصرهم قادهم إلى لمس جوهر الظواهر الدينية والفكرية والاجتماعية، فكتب عن العميان لكن رسالته موجّهة إلى المبصرين، الذين خدعوا بالدعاوى العقلية التي أعمت بصيرتهم.

نُشرت رسالة العميان غفلا عن اسم مؤلفها، ومع ذلك دفع "ديدرو" ثمن موقفه فيها؛ فأودع السجن لخوضه جدلا حسيا حول عدم إدراك الأعمى لله، وتعرّض للمهانة في المعتقل، وأجبر لأن يعترف بأنه تمادى في الجراءة على الأخلاق الدينية، فأمضى تعهّدا بالأ ينشر، بعد الآن، شيئا ما "من شأنه أن يكون مخالفا للدين والأخلاق"، فأطلق سراحه. وأول ما قام به هو نقض العهد الذي أمضاه مجبرا بعدم المساس بالأخلاق الدينية، لكنه راح يضمر أفكاره، ويخفيها، ليكون في "مأمن من السجن ومن النفي».

جاء اعتقاله على خلفية من موقف السلطات الفرنسية من المفكّرين الجدد المنادين بالحسّية، والذين ناصبوا الكنيسة العداء، فقد بدأت ترتسم ملامح الانقسام بين الديني والدنيوي في فرنسا خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر. ولهذا فحينما نشر كتابه الآخر «رسالة عن الصمّ والبكم في خدمة السامعين والناطقين» وارب في التصريح بآرائه، ولم يجاهر بها كما حصل في كتابه عن العميان، فلم يلفت انتباه أحد من خصومه، ولكنه كما سعى إلى جعل الخبرات الحسية وسيلة للمعرفة في الرسالة الأولى، جعل العلامات وسيلة لتعليم اللغة في الرسالة الثانية، فألقى «الضوء على منشأ اللغة عن طريق الإشارات والإيماءات»، فثمة نقض للنظرية اللاهوتية عن أصل اللغة، إنما هي تجميع رمزي للعلامات التي تواطأ على دلالتها المستخدمون. على أن «ديدرو»، فضلا عما كان يثيره من شكوك في «الأخلاقيات الدينية»، وهو ما كان يغضب الكنيسة، وعموم المجتمع الديني، فإن الطبقة المهيمنة في المجتمع الفرنسي آنذاك كانت تتوجس شرا من المفكرين الجدد الذين انتظموا حول «الموسوعة» واصطلح عليهم لاحقا ب»الموسوعيين» وعلى رأسهم «ديدرو»، محرّر الموسوعة.

لم يف "ديدرو" بما وعد به صاغرا، وهو معتقل في قلعة "فنسان" قرب باريس، إذ انخرط، ما أن غادرها، في الجدل نصيرا للأفكار الجديدة القائلة بتنظيم الطبيعة، ورد ذلك في كتابه "الأفكار الفلسفية" بعد أن مهّد لها بكتابه عن العميان، وكما خلص "جان فارلوت" في تقديمه للكتاب، فإن ما جاء فيه "يكفي ليجعلنا نرى ديدرو باحثا متقصّيا شديد الدقّة، وعالما نفسانيا نافذ البصر، ومجدّدا عبقريا. لقد أدرك بسرعة خاطفة كيف تستطيع الحواس أن يحلّ بعضها محلّ البعض الاخر، وكيف تتطور بفعل التركيز والتدريب". فلم يقتصر على وصف حال الأعمى، وقدرته الادراكية، إنما أوضح "فكرته حول مسألة المعرفة". وقد مثلت رسالة العميان القول الفصل في كشف "نسبية الحواس والأعضاء" وفيها ألحّ "ديدرو" على "ضرورة مراقبة بعضها من قبل البعض الآخر" وهي فكرة واصل العمل عليها لاحقا ليثبت أن معرفة الإنسان لا تنجم عن أحاسيس سلبية، وإنما عن نشاط عملي، وعن "طريق الجهد لمعرفة العالم، وعبر التبادل الذي يقوم به الناس حول انطباعاتهم عن طريق اللغة، تبلغ المعرفة صعيدها المتقدّم، وتصبح واقعا اجتماعيا».

أبدى «ديورانت» إعجابه برسالة العميان، وقرّظها في كتابه الكبير «قصة الحضارة» بقوله «إن رسالة العميان من أعظم وأروع ما كتب في عصر الاستنارة في فرنسا. إنه كتاب جميل ساحر من حيث السرد والقصص، كما أنه يتميز بدقة الملاحظة والتبصّر البارع العطوف بوصفه بحثا في علم النفس، كما يتميز بخيال مثير بوصفه بحثا في الفلسفة».

manarat

www.almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

"جاك القدري ومعلمه" للتنويري ديدرو مساهمة فرنسية في روايات الطريق

إبراهيم العريس

منذ مفتتح كتابه "جاك القدري ومعلمه" يحدد لنا الكاتب والفيلسوف والموسوعي الفرنسي ديني ديدرو أن أحداث الكتاب تجري "على الطريق" دون أن يحدد ما الطريق وأين تقع، بل إنه يكتفي منذ السطور الأولى كذلك بأن ينقل لنا أسئلة لا شك أنه يفترض أننا نطرحها بأنفسنا ما إن نبدأ بالقراءة. أسئلة من نوع "كيف التقى هذان الرجلان في عبورهما معاً تلك الطريق؟ هل تراهما التقيا صدفة كما يحدث مع كل الناس؟" أو "بماذا ندعوهما إن كان هذا يهمكم؟" أو "من أين هما آتيان؟ هل من المكان الأقرب إلى حيث نلتقيهما؟ وإلى أين هما ذاهبان؟ هل يمكن لامرئ أن يعرف حقاً إلى أين هو ذاهب؟"... إلخ.

في النهاية نعرف أن من لدينا هنا في ذلك الترحال سيداً وخادماً، تماماً كما الحال في رواية "تريستان شاندي" لستيرن التي كانت صدرت بالإنجليزية قبل الرواية التي نحن في صددها بسنوات قليلة، والتي سارت بدورها في هذا السياق بالذات على خطى رواية الإسباني تسربانتس الكبرى والمؤسسة "دون كيخوتي دي لا مانشا" لتشكل الروايات الثلاث معاً نوعاً من أدب طريق ستستعيره سينما القرن العشرين كثيراً، ولكن ليس هذا ما يهمنا هنا، ما يهمنا هو رواية ديدرو التي يمكن اعتبارها من أهم روايات هذا المبدع الكبير حتى وإن كانت تفوقها شهرة أعمال أخرى له مثل "الراهبة" لأسباب رقابية طبعاً، و"الموسوعة" لأسباب علمية وأخرى تتعلق بالدور الذي لعبه هذا العمل الجماعي الكبير في تاريخ الأفكار كما في تاريخ الوعي الممهد للثورة الفرنسية، حتى وإن كان الثوار سريعاً ما سينسون هذا الفضل لديدرو إلى درجة نبشهم قبره وإخفائه بحيث لم يعد له مقر أبدي حتى اليوم.

طبعاً حكاية ديني ديدرو (1713 – 1784) معروفة وكذلك يعرف الجميع كثيراً عن الظلم الذي لحق به تاريخياً حتى لاقاه في قصر كاترين الثانية ملكة روسيا التي استدعته لإعجابها بفنه وعلمه ثم اشترت مكتبته، فكانت النتيجة أنه عاش لديها آخر سنوات حياته من دون أن ينتج ما هو جدير بفكره وضاعت مكتبته وتشتتت بحيث تبخرت معها مخطوطات كثيرة ودفاتر بخطه، لكن "جاك القدري ومعلمه" سلمت من ذلك المصير حتى وإن لم يقيض لها أن تنشر للمرة الأولى إلا بعد سنوات من رحيل كاتبها. ومهما يكن من أمر لئن كانت هذه الرواية تعتبر فرنسية تماماً، فإن ديدرو لم يكتب حرفاً منها في فرنسا، ولا هي طبعت وصدرت للمرة الأولى في فرنسا، بل خارجها من دون اسم المؤلف، ناهيك بأنها لم تعرف من قبل الجمهور العريض أول الأمر إلا في ألمانيا وتحديداً من خلال ترجمة الشاعر شيللر لواحدة من حكاياتها ستكون الأشهر بين تلك الحكايات وهي المعروفة بعنوان "مدام بوميراي والمركيز دي آسي". ونقول واحدة من حكاياتها لأن هذه الرواية تتألف، على طريقة "ألف ليلة وليلة" مثلاً، من عدد كبير من الحكايات. وهي حكايات يرويها في البنية المركزية للرواية الخادم جاك الملقب بالقدري من جراء إيمانه بالأقدار ودورها في حياتنا، لسيده، للتسرية عنه خلال ذلك السفر الطويل الذي يقومان به معاً.

بدأ ديدرو كتابة الصفحات الأولى من "جاك القدري" في مدينة لاهاي الهولندية في عام 1773، إذ نزل بها وهو في طريقه إلى روسيا حيث يلبي دعوة راعيته الإمبراطورة كاترين الثانية. وهناك في روسيا بعد سنوات وقبل رحيله عن عالمنا اختتم ديدرو كتابته للرواية لكنه لم ينشرها، ومن هنا احتاجت للانتظار ثمانية أعوام بعد موته لتنشر ولكن بالألمانية أولاً، قبل أن تنتظر أربعة أعوام أخرى لتنشر للمرة الأولى بالفرنسية عام 1796 بعد أن نشر جزء منها في "مراسلات" غريم. وعلى هذا النحو عرفت هذه الرواية التي ستضحى من أشهر أعمال ديدرو مصيراً غريباً من المؤكد أن الكاتب لم يتوقعه حين ذكرته رواية ستيرن بـ "دون كيخوتي"، فقرر أن يجرب حظه في نص يشكل معادلاً فرنسياً لهما!

ولكن لماذا كان على رواية "جاك القدري" أن تنتظر كل تلك السنين قبل أن تظهر؟ ببساطة لأن ديدرو كان قد بذل جهوداً كبيرة في إنجاز مقالات ونصوص أخيرة من موسوعته تتوزع على ستة مجلدات، ما أنهك كهولته وقد بات في الستين من عمره وبات في حاجة إلى فترة راحة طويلة. ومن هنا حين دعته إمبراطورة روسيا لزيارتها والإقامة ردحاً من الزمن في حمايتها وضيافتها لبى الدعوة من دون تردد، معتبراً الإقامة في البلاد الروسية فترة من الراحة. وهكذا لئن كان قد انصرف حتى من قبل وصوله إلى روسيا، لكتابة تلك الرواية الأخيرة، التي ستكون واحدة من آخر أعماله الكبرى، لم يكن يفكر لا بنشرها ولا حتى بأنه يمكن أن ينجزها. كانت نوعاً من استراحة محارب بالنسبة إليه. ومن هنا تعامل معها كأنها نوع من إيقاظ وعي لدى من سيتاح لهم أن يقرأوها لاحقاً، من دون أن يحاول حتى التركيز فيها على حكايات قد تمس شغاف القلوب. كان يكتب كأنه يكتب لنفسه، وهو الذي من الواضح أنه إنما أراد أن يرسم صورة لشخصيتي الرواية المحوريتين تصورهما معاً أنا/آخر له. أي إنه كان في النص يخاطب نفسه كأنه يرسم جردة فكرية لجهود حياته. ومن الواضح أنه نجح في ذلك إلى درجة رغب معها في أن يبقي العمل عملاً خاصاً به بعيداً من القراء والمتطفلين.

وفي هذا تختلف هذه الرواية عن روايتيه الكبيرتين الأخريين "الراهبة" و"ابن أخ رامو"، ولكن ليس عن العشرات الأخرى من نصوصه الفكرية والعلمية. ومن هنا أيضاً تلك الروح المرحة الساخرة المتدفقة حيوية ومرحاً، التي تلوح من خلال طريقة الخادم في إخبار سيده الذي بدأ بالتدريج يطلب مزيداً ومزيداً ويحس بحاجته المتزايدة إلى خادمه، ولا سيما حين كان هذا يتفنن في رواية حكايات غرامياته التي لا تنتهي، وسيده فاتح أذنيه فضولاً وعينيه تشوقاً وشفتيه ببلاهة شديدة، وقد راح الخادم يسيطر عليه أكثر وأكثر حكاية بعد حكاية، تماماً كما تمكنت شهرزاد من السيطرة على مليكها حكاية بعد حكاية، بل إن ديدرو الذي يتضح تماماً من خلال هذه الرواية أنه مثل ستيرن وتسربانتس من قبله كان يعرف "الليالي العربية" تماماً، حاكاها كل المحاكاة في الأقل في قطعه حكايات الخادم دائماً عند لحظة تشويقية تزيد فضول السيد و"انحناءه" أمام لعبة خادمه، لأسباب تبدو للوهلة الأولى غير مقصودة في لعبة تشويقية تليق بهتشكوك!

ولكن ما الذي كان الخادم يرويه ونقله ديدرو هنا بلغة مرحة لم تكن معهودة لديه وهو العالم الجاد والروائي المأساوي؟ كالعادة، كل أنواع الحكايات ومن بينها حكايات خاصة به وأخرى خاصة حتى بسيده كانت قد أفلتت من ملاحظة هذا الأخير حين حدثت وها هو ذا الخادم يعيد إحياءها الآن على مسمعه، ولكن أيضاً حكايات أخرى فيها ما ينتمي إلى المغامرات وما يتسم بطابع الوعظ الأخلاقي. وحكايات نميمة تتعلق بأناس يعرفهم وأخرى تتعلق بأناس لن يدرك السيد أبداً في ظل لهفته وتشوقه أن خادمه قد اخترعهم من دون أن يكون لهم وجود مدعياً معرفته بهم من قرب، بل حتى زاعماً أن السيد يعرفهم كذلك ولكن يبدو أنه نسيهم... وعلى هذا النحو تمضي الرحلة وتمضي معها حكاياتها التي من الصعب معرفة الكيفية التي تولد بها إحداها من سابقتها لتلد ما يليها. ففي النهاية إذا كنا نشعر ونحن نقرأ هذه الرواية بالمتعة نفسها التي يستشعرها السيد مستمعاً والخادم حكواتياً، فإن ما نجده أمامنا هنا يبدو لنا متجاوزاً هذا: يبدو ذا علاقة مباشرة بسر الحكي وجوهر لعبة التلقي مطروحة بكل تركيبيتها. ولعل هذا ما جعل كتاباً كباراً، من آخرهم ميلان كونديرا يفردون لـ "جاك القدري ومعلمه" مكانة بالغة الأهمية في تاريخ الأدب والنظرية الأدبية.

عن الانبدبندت